

أوليفر تويست

تشارلز ديكنز

عادل الغضبان



دار المعارف

وفي مساء يوم من الأيام ، بلغ الجوعُ مبلغه من « أوليفر » ورفقائه الصغار ، فاتفقوا فيما بينهم على أن يختاروا واحداً منهم ليطلب من الطباخ مزيداً من الحساء ، حينما يجمعهم في غرفة الطعام ، ويوزع عليهم نصيبهم من ذلك القوت الذي لا يروى ولا يُشبع ؛ فوقعت القرعة على « أوليفر » فنهض يقدمُ رجلاً ويؤخر أخرى ، وحمل تصعته بيده ، وذهب إلى الطباخ وقال له وهو يرتجفُ من الخوف :

— « سيدى ! إن الطفل ” أوليفر “ قد طلب المزيد من الطعام ! »
فارتسمت على وجوه أعضاء المجلس عند سماعهم هذا النبأ ، أمارات

— « نعم يا سيدى ! » فقال الرجل ذو الصدر الأبيض :
— « ستكون خاتمة هذا الطفل جبلَ المشقة . . . أجل ستكون
خاتمته حَبِيلَ المشقة . . . »

وَنَقَضَ قرار المجلس فَرَجَ « أوليفر تويست » في القبو المظلم ، وعُلِقَ على باب الملاجئ الإعلان الذي أراده مجلس الإدارة ، وانقضت أيام تسعة ، فلم يتقدّم أحدٌ لإعفاء الملاجئ من ذلك الصبي النّهيم الأكل . وفي اليوم العاشر ، جاء إلى الملاجئ رجلٌ طويلُ القامة ، نحيف البنية قويها ، مفنول العضلات ، عابسُ الوجه ، وكانت صناعة الرجل دفنَ الموتى وصنّعَ التوابيت ، فاستقبله موظف الملاجئ ، وتبادل وإياه التحية ، ثم خاضا معاً في الحديث عن الصبيّ « أوليفر تويست » . فقبل



7

استيقظ « أوليفر » في الصباح الباكر ، على صوت ضربات متلاحقة تنقض على باب الخناوة ، فنهض من فراشه ، ومشى تَوّاً إلى الباب ، فسمع صوتاً يصيح قائلاً :

— « افتح الباب أيها الحقير ! » فقال « أوليقر » :

— « تمہل قلیلاً یا سیّدی فالبابُ مُقَفَّلٌ ». . فقال الصائح :

— « أعرف ذلك أيها الأب له ، ولكن حسبك أن تشد المزلاج فينفتح

الباب . وعمل « أوليشر » بإشارة ذلك القارح الصائح ، فانفتح الباب ، فإذا به يرى فتى يكبره بعدة سنوات ويقول له :

— «أأنتَ الغلام الجديـد الذى التـحق بالعمل فى هذا الحانـوت ؟»

كل همومه ، وانكب على اللحم المطبوخ يزدوده بشهوة لا مزيد عليها ، فقلما كان قد ظفرَ حتى ذلك اليوم بوليعة كهذه الوليمة . وخرج بعد ذلك من القبو ، وكان الموظف قد انصرف ، فقالت له ربّة الحانوت :

— « إن فراشك في صدر الحانوت ، فلا إخالك تخافُ من النوم بين التوايت ، وسواء خفت أم لم تخفُ ، فليس لدينا موضع آخر ترقد فيه . وانصرف الرجل وزوجته والحادمة تاركين « أوليقر » المسكين في ذلك المكان الرهيب الذي يأنفُ ويفزعُ أن ينام فيه الرجال الشجعان بسلكه الأطفال الصغار . وبقى الغلام قليلاً فريسة الهواجس والخوف ، تراءى له الأشباح على ضوء الشمعة المترقص ، ويخيلُ إليه أن التوايت الموجودة في الحانوت ، قد ارتمت عنها أغطيتهما ، وخرجت منها جثث الموتى بوجوهها الشاحبة ، وأيديها المعروفة ، فلم يمالك عن الصباح رُعباً وفزعاً ، وردَّ الصدى على صياحه فزاده فزعاً ، وكاد يفقده الصواب . وتحامل الغلام على نفسه ، وأهاب بشجاعته ، فضى إلى الشمعة فأطفأها ، وغطى عينيه براحتيه هرباً من رؤية الأشباح ، ومشى إلى فراشه يتعثر مرةً وينهضُ أخرى .



19

يجعلها خاتمةً مطافه

وبعد أن استراح قليلاً ، وأسكت عصافير بطنه بلقمة الخبز ، نهض يحد في السير بلا مسأل ولا كلل ، حتى أدركه المساء فعرج على بعض المزارع ، واستلقى عند كومة من الحشائش ونام نوماً عميقاً .

واستيقظ في الصباح ، وتابع سيره إلى الوجهة التي تخيرها ، فوصل بعد قليل إلى مدينة صغيرة ، فدخلها واجتاز شوارعها ودروبها ، وانتهى به المطاف إلى شارع كبير فيها ، فأخذ يحول فيه ويتفرج على حوانيته ودكاكينه ، فلمح على الرصيف الآخر من الشارع غلاماً في مثل عمره يطيل النظر إليه ويتبعه عن بُعد ، ثم رآه قد اجتاز عرض الشارع ، وجاء إليه وحيّاه وقال :

— « ماذا بك أيها الرفيق ؟ يلوحي أنك غريب عن هذه المدينة »
فحملت فيه « أوليفر » فرآه غلاماً شنيع المنظر قذر الثياب ، قد أمال قبعته إلى أذنه اليمنى حتى لتكاد تقع ، ووضع يديه في جيبي سرواله ، وهو يشمخ بأنفه شأن كبار الرجال ، فرد « أوليفر » على تحيته والدمع يكاد يطفر من عينيه وقال :

— « إني متعبٌ جائع ، وقد قمتُ برحلة طويلة » . فقال الغلام :

— « لا بأس عليك تعالَ معي . . . »

وقاده الغلام إلى بعض الأزقة المتفرعة على الشارع الكبير ، وأدخله

معه مطعمًا حقير المظهر ، وطلب له رغيفًا كبيراً من الخبز ، وقطعة إضافية من اللحم المقدّد ، فانكب « أوليفر » يلتهم اللحم والخبز التهاماً ، فلمّا فرغ من تلك المأدبة الفاخرة . قال له الغلام الغريب :

— « أذهب أنت إلى ” لندن “ ؟ » فقال « أوليفر » :

— « نعم » . فقال الغريب :

— « أأنت في مسكن يؤويك ؟ » فقال « أوليفر » :

— « كلا » . فقال الغريب :

— « أتحمّل شيئاً من النقود ؟ » فقال « أوليفر » :

— « كلا » . فقال الغريب :

— « اعتمد على واطمن بالآ . . . فأنا ذاهب إلى ” لندن “ ، وإني

لأعرف فيها شيخاً وقوراً يرضى أن يستضيفك عنده بلا مقابيل ، إذا قدّمك إليه أحد معارفه ، وسأقوم بهذه المهمة . . . ولعله بعد أيام قلائل يجد لك عملاً ترتزق منه فتحسن حالك » .

ومشى الغلامان في طريقهما إلى « لندن » وكلّما جدّ « أوليفر »

في سيره استمهله رفيقه ، وأنهى إليه أنه لا ينبغي الوصول إلى « لندن » قبل منتصف الليل ، فكان له ما أراد ، وبلغ الغلامان العاصمة في الوقت الذي حدّده ذلك الغلام الغريب ، فلحظ « أوليفر » أن رفيقه يقوده في أزقة لم يتر قط أقدر منها ، ولا أحقر من بيوتها ، وأن للزقاق الضيق الذي



صحا « أوليفر » في صباح اليوم التالي من رُقاده وكانت الضحى قد ضربت أطناها ، فأدار نظراته في أنحاء الغرفة ، وعيناه شبه مُغمضتين ، فلم يجد فيها إلا اليهودي العجوز ، وقد جلس إلى المائدة ، ووضع عليها فنجاناً كبيراً من القهوة يرشفُ منه ذلك الشراب الأسود جرعة بعد جرعة .

ورآه بعد قليل قد عمّده إلى الصّغير والتغنى بكلمات منتهطة ، ثم سمعه
يناديه باسمه فلم يجب « أوليشر » النداء ، فالنوم كان لا يزال عالماً بأهدابه ،
ولما أيقن العجوز أن « أوليشر » غير صاح ، نهض إلى خزانة مخفورة في
قلب الحائط ، ففتحها وأخرج من بعض أدراجها السرية ، علبة كبيرة

وَرَكْزَهَا إِلَى الْمَائِدَةِ وَطَفِقَ يَقْلُبُ مَحْتَوَاهَا بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، وَعَيْنَاهُ تَقْدَحَانِ بِشَرَرِ الْجَشَعِ وَالْحَذَرِ .

وَحَدِّقْ «أُولَيْقِر» مِنْ ثَنَايَا جُفُونِهِ فِي ذَلِكَ الَّذِي يَقَالِيهِ الْيَهُودِيُّ الْعَجُوزُ
بِيَدِهِ ، فَإِذَا هُوَ سَاعَاتٌ مِنَ الذَّهَبِ مُخْتَلِفَةُ الْأَحْجَامِ وَالْأَشْكَالِ ،
وَمُحَاتَمٌ وَمِشَابِكٌ ، وَأَسُورَةٌ مِنَ الذَّهَبِ الْمُرَصَّعِ بِالْأَلْمَاسِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مِنَ الْخَلَى وَالْجَوَاهِرِ الَّتِي لَمْ تَقْعْ عَيْنُ «أُولَيْقِر» عَلَيْهَا قَطَّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ .
وَتَقَلَّبَ «أُولَيْقِر» فِي فِرَاشِهِ ، فَاضْطَرَبَ الْيَهُودِيُّ اضْطِرَابًا شَدِيدًا ،
وَأَعَادَ الْجَوَاهِرَ إِلَى عَالِيَتِهَا بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ الْخَاطِفِ ، ثُمَّ وَضَعَ الْعُلْبَةَ فِي دَرَجَةِ
السَّرِّيِّ مِنَ الْخِزَانَةِ ، وَأَمْسَكَ بِسَكِينٍ كَبِيرَةٍ مَاضِيَةِ الشَّقَرَتَيْنِ ، وَاسْتَعَدَّ
لِلدَّفَاعِ عَنْ كَنْزِهِ ، مَتَوَقِّعًا أَنْ يُفْتَحَ عَلَيْهِ بَابُ الْغُرْفَةِ ، وَيَدْخُلَ مِنْهُ اللَّصُّ
الضَّامِعُ فِي ثَرَوَتِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَدْرَكَ فِي الْحَالِ أَنْ لَيْسَ فِي الدَّارِ غَرِيبٌ مُغْتَصَبٌ ،
فَاسْتَدَارَ إِلَى «أُولَيْقِر» فَرَأَاهُ قَدْ اسْتَيْقِظَ وَإِنْ لَمْ يَنْهَضْ مِنْ فِرَاشِهِ ، فَقَالَ
لَهُ حَانَقًا مُغْضِبًا :

— « ماذا تريدُ أيها الواقع؟ لماذا كنتَ ترقبني؟ ماذا رأيت؟
أجبْ على الفور وإلا فقدتَ الحياة! » .

فقال « أوليفر » في دَعَاة ورقّة ، بعد أن نهض من فراشه :

— « لم أستطع النوم أكثر مما نمتُ يا سيدي ، وعذراً إذا أنا أزعجتك -
واقفت عليك ! »

وجلسوا جميعاً يتناولون طعام الإفطار ، ولما فرغوا منه شهد « أوليفر » اليهودى العجوز والغلامين يقومون معاً بحركات غريبة مضحكة ، فقد رأى العجوز يضع عُلْبَةً من علب لُفافات الدُّخَان في أحد جيوب سرِّواله ، ويضع محفظةً في جيبٍ آخر ، ثم رآه يضع في جيب صدره ساعةً مربوطة بسلسلة ، ولا تَسْلُ عن دهشة « أوليفر » عندما شاهد العجوز قد اعتمد على عصا ، وأخذ يحولُ منسكعاً في جوانب الغرفة ، كما يتسكع الناس الذين يمشون في الشوارع ، ولا عمل لهم إلا الفرجة والتنزه ، فتارةً كان يقفُ أمام الموقد ، وتارةً أخرى أمام الباب ، يجيل نظره فيه كأنه واجههُ حانوت من الحوانيت ، وطوراً ثالثاً كان يتفقد جيوبه كمن يخشى اللصوص والنشالين ، وكانت حركاته تلك من الغرابة بحيثُ أضحكت « أوليفر » وكاد يستلقي على قَفَاه من شدة الضحك . وكان الغلامان يتبعانه عن كَشْبٍ ، وكانا كلما التفت العجوز إلى الوراء توارياً عن نظره بِخِفَةٍ ورشاقة ، حتى تقدَّم أحد الغلامين منه ، وداسَ على رجله ، في حين صدمه الآخر من الخلف ، وبأسرع من تردُّد الطرف كان العجوز قد فقد كل ما في جيوبه : من عُلْبَةِ الدُّخَان والمحفظة والساعة ، حتى المنديل

الشلن جزاءً مقدماً على عملك . » فأذعن الغلام لأمر العجوز وانكب على عمله بهمة ونشاط ، ولم يخامره أى شك من الشكوك وبقي « أوليفر » عدة أيام لا يغادر المنزل ، أو لا يستسمح له بمغادرة المنزل ، حتى ضاق صدره واشتاق إلى الحرية والفضاء الواسع ، وكان اليهودى العجوز قد عهد إليه فى نزع الأسماء من كمية كبيرة من المناديل ، لم يدر « أوليفر » من أين تهبط عليهم ، وكان قد أشركه أيضاً فى اللعبة

 ۳۳

قد جروا وراء السارق ، وحالما عثرتُ على أحد يقوم بتلك الحراسة ، هُرعتُ إليك يا سيدي القاضي .

وصمت القاضي برهة ثم نطق ببراءة الغلام ، فخرج الناس من قاعة الجلسة . وما كاد « أوليفر » يغادر القاعة إلى صحن البناء ، حتى سقط مغشياً عليه ، فسارع إليه صاحب المحفظة المفقودة يُقيِّله من سقطته ، فرآه فاقدَ الوَعْي فطلب قليلاً من الماء ، فرشّه به على وجهه حتى استفاق ولما تفرّس الرجل في وجه « أوليفر » مليّاً قال في نفسه :

— « ربّاهُ إن هذا الوجهُ غيرُ غريبٍ عليّ ، فأين رأيتُهُ قبلَ اليوم ؟ »
وبدأ الرجلُ يستعرضُ في ذهنه وجوهَ من عرف ويعرف من الناس ،
وله شيء من الشبه مع وجه الغلام ، فلم يتوصّل إلى العثور في لوح خياله
على الشبيه ، ثم ضيقَ حَسَنَةُ التشبيه ، وكاد يرى في وجه الغلام وجه
شخصٍ كان فيما مضى حبيباً إلى فؤاده ، ولكنه طرد هذه الفكرة من
مخيلته ، وعاد يعتنى بالغلام ، فأنهضه وحمله إلى مركبة من مركبات
الأجرة ، وسار به إلى منزله . وهناك أمر مديرة المنزل بإعداد سرير للغلام ،
فوضّعه فيه وراح في غيبوبةٍ من الحمى .

مكث « أوليفر » مدة أسبوع طريح الفراش ، لا يعي شيئاً مما حوله ، حتى إذا فارقته الحمى ودبَّ إليه وعيُه شيئاً فشيئاً ، تساءل ذات صباح قائلاً :

◀◀◀◀◀◀◀◀◀◀ ۳۸ ▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶▶

— « أين أنا ؟ ومن ذا الذي جاءنى إلى هذا المكان ؟ »

فَسَمِعَ صَوْتَ سَيِّدَةٍ طَاعِنَةٍ فِي السَّنِ كَانَتْ جَالِسَةً قَرِيبَةً مِنْهُ تَقُولُ لَهُ :

— لا تتكلم يا ولدى ولا تتحرك كثيراً ، فالمرض قد يعاودك . . .

هذه وصية الطبيب الذى داواك . . . إنك هنا فى منزل السيد " براون " وهوبك شفيق رحيم . إنه الآن غائب عن المنزل ، وسوف يسره ، متى هاد ، أن يراك فى صحة جيدة .

فشكرها « أوليفر » كل الشكر ، وأظن في شكره وأستهب حين
جاءته بقدح من الشراب المنعش فشربه مسروراً .

وفي مساء ذلك اليوم جاءت به بَقَصْعَةٌ مملوءة من الحساء الساخن اللذيذ ،
ولم بجانبها إناء مملوء كذلك بذلك الحساء ، فنظر « أوليفر » إلى القصة
والإناء ، وقدّر أن الحساء الذي فيها يكفي ثلاثمائة فقير من أمثاله ،
فشرب الحساء مريثاً ، وأكل هنيئاً ممّا كان مع الحساء من خضر ولحم
الدجاج ، هذا والمذبذبة العجوز هائنة مسرورة بإقبال « أوليفر » على الطعام
بشهوة ورغبة ، ثم رآته يحدّق طويلاً إلى صورة زيتية كبيرة ، معلقة على
الحائط فقالت له :

— «أحبُّ التصوير الزيتي يا عزيزي؟» فقال «أوليفر» :

— « لست أدري يا سيدتى ، فقلما رأيت مثل هذه الألواح فى
حياتى ، غير أن وجه الفتاة المرسومة فى هذا اللوح يبدو لى أنه يُشعُّ بالجمال





٤

عاد « جاك » و « شرلو » إلى منزل اليهودي العجوز ، فلما رآهما
اثنين لا ثالث لهما . احتدم غيظاً وصاح فيهما قائلاً :

— « أين « أوليفر » ؟ »

فجزع الغلامان من منظر ذلك الوحش الجاحظ العينين ، والتزما
الصمت ، فانقضَّ اليهودي العجوز على « جاك » وأمسك بتلابيبه وقال :

— « ماذا جرى له ؟ » فقال « جاك » وقد استردَّ بعض وقاحته وشجاعته :

— « لقد وقع في الفخ . . . ولكن هلاَّ تركتني أتنفَّس ؟ ! » .

لسوى صوت العجوز هائجاً مزججاً وهو يقول :

— « أيُّها الشقي . . . »

والحنان، فهل تشبه أحداً في أسرة هذه الدار ياسيدي ؟ » فقالت المدبرة العجوز :

— « لا يا عزيزي » . فقال « أوليفر » :

— « إن عينيها تفصحان عن الكآبة ، ويخيمُ إلى أنها تحدِّق إلى »

وتريد أن تكلمني » . فقالت المدبرة :

— « لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته يا ولدي . . . »

وفي هذه اللحظة دخل السيد « براون » واقترب من سرير « أوليفر »

مستفسراً عن صحته فقال له « أوليفر » :

— « أرجو ألا تكون مستاءً مني يا سيدي ! » فضحك السيد

« براون » ولاحظ منه التفاتة إلى صورة الفتاة المعلقة على الحائط ثم وزع

نظراته بينها وبين « أوليفر » فقال يخاطب مدبرة المنزل :

— « يا لله من هذا الشبيه الغريب ! . . . » ثم انصرف مسرعاً فقد

حرَّكت الصورة في نفسه لواعج الشُّجون .



الضخم فزقك تمزيقاً . . . أسمعَت أيُّها الوقح ؟ » فاذْ عَن « أوليفر »
المسكين اليائس لأوامر ذلك الرجل الغليظ الكبَّيد ، ومدَّ يده اليُسرى إلى
« نانسي » فأمسكت بها ، وسارت به في صمتٍ وسُكون ، فما زالت تلك
القافلة تسير من طريق قنْدَرٍ إلى طريق أَقْدَر ، ومن زقاق ضيقٍ إلى زقاق
أضيَّق ، وحتى وصلت بعد نصف ساعة إلى منزلٍ متهدِّمٍ يبدو على مظهره
أنه خالٍ من السُّكَّان ، فطرق « سيك » الباب ثلاثَ طرقات ، فانتفتح
على الفور ، وتقدم « سيك » إلى الدهليز وهو يصيح :

« نجاك » و « شرلو » يزعمانه بأقوالهما الغليظة ، فن قائل له وهو يتحسس ملاسه :

[illegible]

وجرى اليهودى العجوز والغلام وراء « أوليفر » وهم « سيك » بأن يُطلق كلبه وراء الهارب ، فحالت الفتاة « نانسى » دون ذلك ، ووقفت بينه وبين الكلب وهى تقول :

كاللَّبوةَ فقدتْ أشبالها ، فجرّدتهُ من عصاه ، ورمتها في الموقد فاشتعلت
بها النار . وتحفّز « سيك » ليؤدّب الفتاة « نانسي » فوقه اليهودي العجوز
قال :



— « عليك أولاً أن تبعث "نانسي" إلى "في هذا المساء"، فأسلمها

— « إلى مكان أمين جميل يا "أوليقر" ». ثم همست في أذنه قائلة:



على مقربة من أحد الجسور ، فترجل الخوذي وترجل بعده « سيك » و « أوليقر » ثم أشار « سيك » إلى الخوذي إشارة خاصة ، وأمسك بيد « أوليقر » وسار به في خُطى واسعة ، فما شكّ الغلام المسكين إلا أن رفيقه الظالم قد جاء به إلى هذا المكان ليغرقه في النهر ، ويتخلص منه في هذا المكان البعيد ، فلا يقف أحد على جريمته ، فارتعدت فرائصُ الغلام عندما جالت بخاطره هذه الفكرة ، وازداد يقينه بالخطر الداهم حين رأى « سيك » لا يجتاز به الجسر ، بل ينزل من أحد جانبيه إلى مستوى النهر ، فبدأ له أن يصيح مستغيثاً ، ولكن تذكر المسدّس في جيب غريمه ، ووازن بين الموت قتلاً بالرصاص أو غرقاً في مياه النهر ، فأثر الصمت مستسلماً لمشيئة الله ، منتظراً مصيره المحتوم .

وصل « سبك » به إلى حافة النهر ، ولكنه لم يَرَمْه فيه كما توهم ؛ بل سار به في دَرَب ضيقٍ متعرجٍ ، حتى بلغا كوخاً من الأكواخ مُقاماً على جانب النهر ، فتنفَّس « أوليفر » الصعداء لما رأى « سبك » يطرقُ باب الكوخ طرقيّاً خاصّاً ثم يفتَحُ الباب ويدخل منه إلى الكوخ ، ويستقبله فيه رجلان تبعثُ سَحَنَتَهُمَا بالبُشعة بالدُّعْر في القلوب ، ويقول له أحدهما وهو يشير إلى « أوليفر » : « مَنْ هذا ؟ »

فأقبل « سيك » على الرجلين يحدثهما حديثاً خافئاً ، فبدت على الرجلين علاماتُ الطمأنينة ، بل لعلَّ وجود الغلام قد سرَّهما ، ثم دَعَوَا

جرت المركبة بالمسافرين جترياً حثيثاً حتى انتصف النهار ، فوقفت عند باب مطعمٍ من المطاعم ونزل « سيك » منها وجرّ معه « أوليقر » ودخلا المطعم ، فتناولوا فيه طعامَ الغداء ثم دخن « سيك » عدة لفافات من التبغ ، ثم خرجا واستقلا المركبة فتابعت بهما السير إلى حيث يقصدان بل إلى حيث يقصد « سيك » فإكان « أوليقر » لِيَدْرِي كما علمنا إلى أين ستنهى بهما خاتمة المطاف ، ولا كان يدرى الغرض من هذه الرحلة .

واستمرت المركبة تجرى بهما حتى توارت الشمس وراء الأفق ،
وبدأ المساء ينتشر على الأمكنة والبيقاع ، وعلى حين فجأة وقفت المركبة

« سيك » والغلام إلى تناول الطعام ، فأكلوا جميعاً ثم قال : « سيك » يخاطب « أوليفر » :

« تمددْ على هذا المقعد وتمتّع بِقِسْطٍ من الراحة فإننا سنستأنف السَّيْرَ في منتصف الليل . »

فامتثل « أوليفر » للأمر ، وكان في أشدّ الحاجة إلى النوم والراحة وفي منتصف الليل دهش الغلام إذ رأى الرجلين يصطحبانهما ، ويركبان معهما المركبة التي جاء هو و « سيك » بها ، وكانت تنتظر القوم حيث وقفت على مقربة من الجسر . فبدأ « أوليفر » يفكّر ويُطيل التفكير لعله يدرك الهدف من هذه الرحلة الشاقة مع هؤلاء الأبالسة ، فما استقرّ في ذهنه رأى يرتاح إليه

وبعد مسير ساعة من الزمان ، وقفت المركبة ونزل منها الراكبون وساروا قدماً بين المزارع حتى وصلوا إلى منزلٍ جميلٍ قام في وسط حديقة غناء ، يحيط بها سورٌ قليلُ الارتفاع ، فوقف الرجال الثلاثة عند جانب من جوانب السور ، وأخرج « سيك » مسدسه وسدّده إلى صدغ « أوليفر » وهو يقول له همساً : « تذكّر وحذار . » ثم تسلّق أحد الرجلين السور وهبط منه إلى الحديقة ، ورفع « سيك » الغلام وقذف به إلى الحديقة ، فتلقاه الرجل الذي سبقهم إليها ، ثم لحق به « سيك » والرجل الآخر ، ومشى الرجال الثلاثة والغلام في خطوات خفيفة إلى أن بلغوا باب المنزل ، مستترين

برداء الظلام ، وهناك انفرد « سيك » بالغلام وهمّس في أذنه :

— « انظر إلى هذه الكوة الصغيرة في أعلى الجدار . . . سنفتح بأدواتنا بابها الخشبي ، وسنرفعك إليها فتجتازها وتهبط منها إلى السلم ، فهو غير بعيد منها ، ثم تنحدر منه إلى باب المنزل فتشدّ ميزلاجته وتفتحه لنا . . . وإياك أن تحدّثك النفس بغير هذا الذي أمرك به ، وإلا مزقتُ جسدك برصاص مسدسي أنني كنت . »

فما وسّع « أوليفر » إلا الإذعان ، ولكنه كان قد صمم في قرارة نفسه أن يهبط من الكوة إلى السلم ، ويملاّ المنزل صياحاً واستغاثة ، لعل سكان المنزل يُهرعون إلى نسجده ، وينقذون أنفسهم من هؤلاء اللصوص الذين جاءوا يُغيرون عليهم ويسلبونهم المال والمتاع .

وقف أحد الرجلين مستنداً إلى الجدار وعاون الرجل الثاني على أن يرتفع إلى كتفيه ، فلما استقرّ عليهما بلغ الكوة فأخذ يُعالجُ بابها بما في جيوبه من أدوات حتى فتحه ، وهنا اقترب « سيك » من « أوليفر » ورفع بكلمات يديه ، وقذفه إلى الرجل الذي فتح باب الكوة ، فتلقاه بيده اليمنى ، في حين أمسك باليسرى حافة الكوة حتى لا يسقط ، وبعد أن استعاد توازنه ، دفع الغلام إلى مدخل الكوة ولكن ... لمع في المنزل على حين غرة ضوء مصباح أعتبه طلق ناراً ساطعة « أوليفر » على أثره مرتباً إلى الحديقة ، فتلقاه « سيك » ثم علا الضجيج في المنزل ، فلم يَسعَ اللصوص

إلا الهرب ، فتسلّقوا سور الحديقة ولاذ الرجلان بالفرار ، أما « سيك » فكان أبطأ منهما حركة ، لأنه كان يحمل « أوليفر » مغشياً عليه .

وشعر « سيك » بعد قليل أن سكّان المنزل قد غادروه إلى مطاردتهم ، فأصواتُ الناس ونباحُ الكلاب تمزق سكّون الليل ، وتصلُّ إليه فتحدوه على الإسراع في الهرب ، ولكن كيف السبيل إلى الفرار وهذا الغلام المغمى عليه يعوقه عن الركض والابتعاد عن المطاردين ؟ !

وزاد في قلقه وحسّته سماعه دوى عجلات المركبة التي كانت تنتظرهم ، فعلم أن زميله قد استقلّاها وهربا بها . وبينما هويجرى على غير هُدًى ، عثرت رجله فوقع في حفرة فتدأى بها هو والغلام ، على أمل أن يستأنف الهرب عندما تخفّ وطأة المطاردة ، وحينما وضع « أوليفر » في أرض الحفرة لحظ أن ذراع الغلام اليسرى يسيل منها الدّم ، فأدرك أن الطلّق الناري قد أصابه دونهم جميعاً ، فأخذ الشّال الملفوف على عنقه ، وربط به جرح « أوليفر » ربطاً محكمّاً فنتعه من النزيف ، وقضى ساعات طويلة في ذلك الحجاب ، لا يستطيع الخروج منه . وكان كلّما همّ بمغادرته طقت مسمّعة أصواتُ المطاردين فتسبّع فيه ، وعندما بدأت خيوطُ الفجر تلوح في الأفق ، نظر إلى وجه « أوليفر » فرأى جفونه تتحرك كالمستفيق من نومه أو غيبوبته ، فقال في نفسه : إن هذا الغلام سيعوقني عن الهرب ، وجرحه علامة ممّيزة تلفت الأنظار إلى في هذه البقعة ، فقرر أن يتركه

ويرحل عنه ففعل .

وطلّع الصباح من خلال الغمام الذي كان يملأ السماء ، فأفاق « أوليفر » وهو يرتجف من البرد ، وكان لا يزال خائراً القوي ، فاستغرب من وجوده في تلك الحفرة ، فتحرّك قليلاً من موضعه ، فاشتدّ عليه الوجع ، فتحسّس ذراعه اليسرى فإذا هي تنزف دمّاً من ثنايا رباطها المحكم ، فصاح متألماً وبقي يزفر ويتنهد حتى طلعت الشمس ، فاستجمع قواه وخرج من الحفرة ، وأخذ يُجِيل الطّرف فيما حوله ، فلم يعرف أين هو ، فشئ بين المزارع لعاه يجد أحداً يستنجده ويُعنى بجرّحه ، وظلّ يمشي متحاملاً على نفسه إلى أن لاح له منزل قريب محاطٌ بحديقة مسورة ، فقام في ذهنه الصغير أنه يعرف هذا المنزل وتلك الحديقة ، ولكنه لا يذكر متى رآهما ، فسار إليها يتعثر مرّةً وينهض أخرى ، فوصل إلى باب الحديقة وكان مفتوحاً ، فدخل منه ومشى إلى باب المنزل وهو يكاد يقع من شدة الألم والإعياء ، فما إن يحدّق إلى المنزل وإلى الكوة التي في أعلى الجدار ، حتى ينجلي له الموقف ، ويتذكر حوادث الليلة الماضية ، ويعلم أنه المنزل الذي حاول اللصوص سرقة معتمدين عليه في غرضهم الأثيم ، ففكر أن يعود على أعقابهِ هارباً لثلاثيّنهم بجريمة السرقة ، ولكنه سقط مغشياً عليه عند الباب .

وكان سكّان المنزل يتألفون من أرملة عجوز وصبيّة حسنة ومن طبّاخ

ففتحت المختصرة عينيها كأنها عائدة من العالم الآخر ، وقالت لها

— « أودُّ من صميم الفؤاد لو مات برداً أو جوعاً أو برصاصة عابرة، حتى ترتاح نفسه من حياة الإجرام التي يحياها . أما الغلام فكان الله في عونهِ وأنقذه من مخالبك وبرائتك » . فصاح فيها اليهودى العجوز :

— « دَعَيْ عَنكَ هذا الرِّياء... فأنتِ و"سيك" تعلمان حقَّ العِلْم أن لهذا الغلام قصّة، وأنّى سأجْنِي من وراء تلك القصّة مئات الجنيهات إذا أنا قمتُ بأمرٍ معيّن... فإن أخفيتاه عنّي فالويل لكما من انتقامي... »

وتركها ذاهلةً مدهوشة ممّا سمعت ، وانصرف يقضى الليل في منزله الثاني . وفي مساء اليوم التالى زاره هذا الذى يدعى « مونك » ولئن لم يظهر إلاّ الآن في سياق روايتنا هذه ، لقد كان على صلة باليهودى العجوز ، يتقابلان سرّاً ويتآمران معاً على الغلام « أوليفر » فأما تقابلا وجهاً لوجه قال اليهودى العجوز بصوت ملؤه الحسرة والأسى :

— « لقد أخفق التّدبير الذى دبّرته ، وعاد أفراد العصابة خاسئين » .

— « إنك تصرّفت تصرّف البُلّهاء ثم ما لنا وإشراك الغلام في حادث سَطُو ؟ أما كنتَ تستطيع أن تجعل منه نَشْئالاً فقط ... كان ذلك يكفيني ! » فقال اليهودى العجوز :

— « كلا . لم يكن من السّهْل حَمْلُهُ على النّشْل ، فهو غلام ذكيّ عنيد ، لا يفعل إلاّ ما يريد ... ومنذ اليوم الذى جئتني فيه تخبرني أن هذا الغلام هو ضالّتك المنشودة ، وأنا أجهّد في تنفيذ ما اتّفقتنا عليه ... »

وزاد في تَعَبِي وإرهاقي أن الفتاة " نانسي " أصبحت تدافع عنه ... »

— « ولماذا تُبَقِّى عليها ؟ اخنقها ما دامت تعرقل خطّتك ... ولكن حذار على حياة الغلام فموته يسبّب لى المتاعب ، ولا بدّ أن تُعرَفَ صلتى بالحادث فأفقد كل شيء ... أريده أن يصبح وغداً سافلاً لصاً ... هذا كل ... » وتوقّف فجأة عن الكلام ، وتشبّث باليهودى العجوز وهو يقول له في ذعر واضطراب :

— « لقد لمحت خيال امرأة يتلصّص علينا ويتنصّص إلينا ... »

فهدأ اليهودى العجوز من رَوْعهِ ، وأكّد له أن ما من مخلوق رجلاً كان أم امرأة يجسر على تخطي عتبة باب المنزل إلا أن يكون من زُمرة العصابة ، وهؤلاء لا يتلصّصون ولا يتنصّصون ، بل يدخلون تَوّاً حيث يكون . فلما لم يقتنع « مونك » بمنطق العجوز ، شاء هذا أن يُشَبِّت له صحّة ما يقول ، فأخذ المصباح وجال و « مونك » في أنحاء المنزل غرفةً غرفةً ، فما لحا آثار إنسان ، فانصرف « مونك » ونفسه فريسةً للهواجيس والوساوس .

وظهر « سيك » بعد أيّام ، فما استطاع أن يخبر اليهودى العجوز بمصير « أوليفر » ولا استطاع أن يهدّي من ثائرتهِ ، ثم انقضت عدّة أسابيع وما من نبأ عن الغلام ، وكان اليهودى العجوز كلما خلا إلى نفسه طار فكره إلى الغلام « أوليفر » وودّ لو عرف مقرّه فجند له الإنس والجنّ يختطفونه ويعيدونه إليه ، حتى لا يفقد المبلغ الضخم الذى وعده به « مونك »



مقابل إفساد الغلام ، ولكن أنسى له الرّجْم بالغيب ليعلم أن « أوليفر » سعيدٌ كل السَّعادة في ضيافة الأسرة التي آوته ، وأنه يشغل نهاره بصيد العصافير وسقّى الأزهار وتسلق الأشجار .

وأقبل « أوليفر » ذات يوم على الآنسة « وردة » وقال لها :

— « في صدرى كلام أريد أن أفضى به إليك يا آنسة ، ولكنني أخشى أن تتهميني بالعقوق وإنكار الجميل » . فقالت « وردة » مبتسمة :
— « قل ما بدا لك يا عزيزي ” أوليفر “ ولا تخش بأساً ! » فقال « أوليفر » :

— « وددتُ لو علم ذلك المحسن الرقيق الفؤاد السيد "براون" ومدبرة منزله التي عطف على ورعتي ، أننى مقيمٌ عندكم سعيدٌ بضيافتكم » .

— « ما أطيب عنصرك يا "أوليڤر" وما أنبل شعورك ! أنا لا أشك فى أنهما سيغبطان لاغتباطك ، فاعلم أن الطبيب الذى عاجلك قد وعدنا أن يصحبك إليهما فى يوم من الأيام » .

ولم يطل انتظار « أوليفر » لليوم الموعود فقد جاءه الطبيب بعد أسبوع ، واستقلّ معه مركبة الأسرة ، وذهبا يزوران السيّد « براون » ولكنهما عادا من رحلتها والأسى يملأ قلب « أوليفر » فقد وجدا المنزل خلواً من السكان ، وعليه لافتة للإيجار ، وعلما أن السيّد « براون » ومدبرة منزله قد رحلا منذ أربعة أسابيع إلى بلاد الهند الشرقية .



وأخرجت من جيبها كيساً صغيراً من الجلد ، ووضعتة على المنضدة
فاختطفه « مونك » وفتحته بيد مضطربة فإذا فيه خاتم زواج وحلية ذهبية
على شكل قلب تحتوي على خصلتين من الشعر ، وقد كتب على الخاتم
اسم « أنيس » دون ذكرٍ لاسم الأسرة ، وحفر عليه تاريخ يرجع إلى
قبل مولد الغلام بسنة واحدة ٥

وكان « بمبل » في أثناء ذلك تتنازعه عواملٌ عدة وهو صامت
لا يتحرك ولا يتكلم ، فلمّا رأى بأمّ عينه تلك النتيجة اطمأنّ بالأمر على
حياته وحياة زوجته من انتقام الرجل ، وضمن الاستئثار بالمبلغ الذي
قبضته زوجته . وسكت الثلاثة قليلاً ، ثم قطع « مونك » حبّـل الصمت
وقال :

— « سأريكما على الفور مصير هذه الحلية » ٥

وعمد إلى زاوية من أرض الغرفة فضغط بيده على مربع خشبي ،
وللحال انخفض من وسط الغرفة مربع كبير ، فسمع تحته جريان الماء ،
وكان المنزل قائماً على حافة النهر ، ومتصلاً به بمجرى من الماء ، فقال
« مونك » :

— « كان في استطاعتي أن أفعل هذا الذي فعلت عندما كنّا جالسين
فوق المربع الذي انخفض الآن ، فنذهب إلى أعماق النهر جثتين هامدتين ،
أمّا وقد تبينّت صدقكما ، فالمرودة تتقاضاني أن أبقى عليكما ، وسأقذف



كان الليل قد انتصف عندما دخلت الأنسة « وردة » غرفتها ،
والاضطراب يُقيمها ويُعقدها ، فقد سمعت من الفتاة « نانسي » أشياء
أذهلتها وعصفت بقلبها ، فاستلقت إلى سريرها لعلّ النوم ينقذها من
ثُوران نفسها وقلقها البالغ ، ولكن هيهات . . . استعرضت في خاطرها
الأشخاص الذين تستطيع أن تبوح لهم بذلك السر الخطير ، فما قرّر قرارها
على واحد منهم فبدأت أولاً بطبيب الأسرة ، وكان في ضيافتها ، فقد
دعته أن يصحبهم إلى أحد شواطئ البحر ، وكان السفر مُقررّاً بعد
يومين ، فلم ترتح إلى مباحثته بهذا الأمر لما تعرفه من طبعه الخاف ،
فسوف يرى في كل هذا أضغاث أحلام ، وتذكرت فتى يدعى « هنرى »

هو ابن الحالة التي تعيش معها ولكنها ترددت في استدعائه إليها لأسباب عاطفية لا تريد إثارتها ، فما زال الفكر يطرحها كل مطرَح حتى غلب عليها النعاس والتعب فنامت . ونهضت في الصباح مهمومة : وعادت إلى تفكيرها وقضت فيه ساعة أو ساعتين ، وإذا بالغلام « أوليفر » يدخل عليها مضطرباً وكان قد عاد من نزهة في شوارع « لندن » صحبه فيها « جيل » فخفَّت إليه « وردة » وقالت :

— « مابك يا "أوليقر" ؟ ما هذا الاضطراب ؟ » فصاح وهو يسكنهت :

— « عزيزتي ! ... لقد رأيته ... نعم رأيته ذلك الكريم الذي كان قد استضافني عنده ... رأيته السيد " براون " ... »

— « وأین رأیتہ ؟ »

— « رأيتُه في أحد الأحياء وقد نزل من المركبة ودخل المنزل ، فغلبنى الاضطراب فلم أستطع أن أُهرعَ إليه ، غير أن ” جيل “ قد سأل عنه فعلم أن هذا مسكنه وإليك العنوان » . ودفع « أوليفر » إليها بورقة كتب فيها عنوان السيد « براون » فقرأتها وقالت :

— « سأصحبك يا "أوليقر" إلى هذا السيد الكريم ، ولكن آمنهلى قليلاً من الوقت حتى أرتدى ثياب الخروج ، وأخبر خالتي بأننا ذاهبان إليه » .

وما هي إلا دقائق معدودات حتى كانت الأنسة « وردة » و « أوليفر »



يستقلان المركبة في طريقهما إلى منزل السيد « براون » فلما بلغاه قالت
الآنسة « وردة » للغلام :

— « ابق أنت في المركبة لأمهّد لك سبيل اللقاء » .

ونزلت الآنسة « وردة » من المركبة وسارت تَوّاً إلى المنزل ، وكانت بعد قليل وجهاً لوجه مع السيد « براون » فتطلّعت فيه فإذا هو رجل وقور جميل السماء ، قد خط الشيب رأسه فبادرته قائلة :

— «جئتُ يا سيدي أحدُك عن غلام كنتَ قد غمرته فيما مضى
بعطفك وحنانك . . . عن غلام اسمه "أوليفر تويست"»

فاهتز الرجل عند سماعه هذا الاسم وقرأت الأنسة «وردة» في عينيه الأسف والأسى، فعلمت أنه يُضْمِرُ له في قلبه ذكرى أليمة، فقصّت عليه قصة الغلام دون أن تذكر له شيئاً عما باحت لها به الفتاة «نانسى»، فقبضت قبضات السيد «براون» فرحاً وقال:

— « وأين هو الآن ؟ هلاً جئتني به يا آنسة ! » فقالت :

— « إنه في المركبة على مقربة من الباب ينتظر الأمر بالدخول »

وأُسرع السيد « براون » ينزل درج السلم أربعاً أربعاً ، وعاد بعد قليل ممسكاً بيد « أوليفر » والدنيا لا تسعه من شدة الفرح ، ثم نادى مدبرة المنزل ، فجاءت دون أن تعلم أية مفاجأة تنتظرها ، فلم يكذبصرها يقع على « أوليفر » حتى هجمت عليه توسعته تقبيلاً



أن "نانسى" ستؤدى بنا جميعاً إلى التهلكة . . . »
وانفلت إلى الغرفة المجاورة ، وأيقظ جاسوسه ، ثم جاء به وهو يفرك عينيه من شدة النعاس ، وقال له بلهجة الأمر النأهى :
- « قل لصديق "سيك" كل ما أخبرتنى به عن "نانسى" وعن أحاديثها مع من لقيتهما الليلة تحت جسر "لندن" ولا تخف منها حرفاً واحداً » . فكرر الجاسوس الرواية التى كان رواها لليهودى العجوز ، فلم يكد يصل إلى نهايتها حتى استدار « سيك » على عقبه ، وخرج مسرعاً ، فاصداً منزله ، فوجد « نانسى » تغطى فى النوم ، فأيقظها بجفاء وغلظة ، وشد عليها التكمير فى السؤال والاستجواب ، فما ردت عليه بجواب تقنع به نفسه ، فوثب إليها وثبة الذئب الغادر ، وشد على عنقها بيديه الأيمن حتى فاضت روحها وانقلبت جثة هامدة . . .



غربت الشمس ذات مساء ، فوفقت مركبة من مركبات الأجرة عند دار السيد « براون » فنزل هذا منها ، ونزل بعده رجلان بل عملاقان ، وهما قابضان على ذراعي رجل ثالث ، فأدخلاه عنوة إلى المنزل . ولم يكن هذا الرجل الثالث إلا « مونك » .

دخَلَ « موناك » المنزل مكرهًا ، وقاده السيد « براون » إلى مكتبه
ثم قال يخاطب العمالقين الواقفين إلى جانبه :

— « اترکانا وحمدنا ، وقفنا عند الباب وكونا على مسمع من صوتی » .
فنفذ الرجلان أمر « براون » فما كادا يخرجان حتى قال « مونك » :
— « یدھشنی یا سیددی وأنت صدیق قديم لوالدی ، أن تعاملنی


 ۱۱۲
 

وعلى أن هذا الغلام أخى . فقال « براون » :

« لقد وقفتُ على الدليل منذ خمسة عشر يوماً فقط ... أنت تعلم أن لك أخاً ، وأنت تعرف هذا الأخ ، ولست تجهل أن والدك قد ترك وصيةً بشأنه ، ولكن والدتك قد أخفت تلك الوصية ، وأخبرتكَ بذلك وهي تموت . . . كان هناك غلام . . . وهذا الغلام قد أثار شكوكك منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها ، ورأيتَ الشبه بينه وبين والدك . . . ثم ذهبتَ إلى مكان مولده ، وحصلتَ على الدليل ، ورميتَ به في أعماق النهر ... أفتُنكِرُ هذه الوقائع أيُّها اللص المنافق المتواري وراء الظلام ، المتأمر مع الأوباش واللصوص والأوغاد ، يا من كنت سبباً في موت فتاة من عصاباتكم تساويك ألفَ مرّة ... أتتحدّاني بعد يا "إدورد ليفورد" ؟! »

— « ولما رعى القدر أخاك في طريق غلاماً هزياً يرتدى الأسمال ،
آويته ورعيته ، وأدهشني الشبه الذي رأيته بينه وبين الصورة التي تركها
والدك عندي ... ثم اختطف من عندي وأنت تعلم كيف اختطف ولماذا
اختطف ؟ » فقال « مونك » في شيء من العناد والوقاحة :

— « المهمّ يا سيّد "براون" أنك لا تمتلك دليلاً واحداً أدان به .
ولأنّني أتحدّثك أن تبرز ذلك الدليل ! » فقال « براون » واثقاً مطمئناً :
— « سوف نرى . . . فاسمع الآن بقية الحديث . . . كنتُ أعلمُ
أنّ والدتك قد توفيت ، وأنك أنت وحدك من يستطيع أن يُمسك اللثام
عن نَسَبِ الغلام . . . فبحثُ عنك ، فعرفتُ أنك رحلتَ إلى الهند
الشرقية ثم عدتَ منها ، ولكنني لم أستطع أن أعرف عنوانك في " لندن " .
فقد قيل لي إنك متنقّلٌ من مكان إلى مكان ، فلا تُرى إلاّ مع عَشْرَاءِ
السوء كما كنتَ في حدائتك ومطلّعِ شبابك » . فقال « مونك » متضامياً :
— « دَعْ عنك كل هذا ، وهات الدليل على أنّني محتالٌ مزوّر ،

 ۱۱۶

— « نعم » . فقال « براون » :
 — « وهذا الغلام مولودٌ في هذه المدينة أليس كذلك ؟ » فقال « مونك » :
 — « أجل في ملجأ البرِّ والإحسان . . . » ثم قال يخاطب الجمع
 الحاضر وهو يشير إلى الأوراق التي يحملها السيد « براون » :

— « وعلامَ احتوت الوصية ؟ » فالتزم « مونك » السكوت فتاب
« براون » عنه وقال :

وكانت مصابةً بمرضٍ خطيرٍ ومتحرقةً شوقاً إلى لقاء ابنها ، فعرّنا عليه بعد جهدٍ جهيدٍ ، فرحلت معه إلى فرنسا . فقال «مونا» متمماً الحديث :

— « ماتت هناك بعد عذابٍ شديدٍ وآلامٍ مبرّحة ، وقُبِّل أن تلفظ أنفاسها ، باحت لى بسرّها وورثتني حقّها الدفين على "أنيس" وولدها ، وكانت مقتنعةً بأن الفتاة لم تنتحر ، وبأنها ولدت غلاماً وهو حيٌّ يرزق ، فأقسمتُ لها قائلاً : لن لقيته يوماً لأعذّبته عذاباً أليماً ، وألاحقته بما استطعت من قووى وجهد حتى أجعل منه لصاً سافلاً حليفَ المنكرات والموبقات ، ولو أدتني الأمر إلى أن أدنيه من جبل المشنقة ، فأقضى على روح تلك الوصيّة الزرّية . . . وها أنا ذا قد لقيته في طريقي ، وبدأتُ عملي فيما نويت له بدايةً طيبةً ، وكِدْتُ أصلُ إلى أمّنتي ولُبّانتي لولا تلك الفتاة الشرّارة التي تسمّى "نانسي" . »

ثم أخذ «مونا» يقذفُ من فيه الشتائم واللّعنات ، في حين اندفع «براون» يشرح للسّامعين الخطة التي اتّفق عليها «مونا» واليهودى العجوز . والتفت «براون» بعد ذلك إلى «مونا» وسأله قائلاً :

— « وكيف عثرت على الحلبة والخاتم ؟ » فقال «مونا» :

— « اشتريتهما من الرجل والمرأة اللذين حدثتك عنهما . وأنت تعرف أنى رميتُ ذلك الأثر في أعماق النهر . »

فخرج «براون» من الحجرة وعاد بعد قليلٍ يدفع أمامه السيّد «بمبل»

وزوجته ، فلما صارا في وسط الحجرة قال لهما مشيراً إلى «مونا» :

— « أتعرفان هذا الرجل ؟ » فقالا معاً :

— « كلا ! » فقال «براون» :

— « ألم يبتع منكما شيئاً قط ؟ أو لم يكن في حوزتكما خاتمةٌ وحليةٌ ذهبيةٌ على شكل قلب فاشتراهما منكما ؟ » فقالا معاً :

— « كلا . وألف مرة كلا . »

فخرج «براون» ثانية من الغرفة ، وعاد تصحبه امرأتان طاعتان في السنّ ، تكادان لا تقويان على المشى ، فما إن يقع نظرهما على زوجة «بمبل» حتى رفعت إحداهما يدها المرتجفة ولوحتها في وجهها وقالت :

— « لقد عُنيت بإقفال الباب يومَ ماتت العجوز "سالى" ولكنك لم تستطعي أن تسدّي فتحاته ، فسمعنا كلَّ الحديث . » وأردفت العجوز الثانية قائلة :

— « وفي اليوم التالى تبعناك إلى بنك الرهون فرأيناك قد سلّمت منه خاتمةً وحليةً ذهبيةً .. نعم تبعناك ورأينا كلَّ شيء ... ونهلاً عن ذلك فإن المسكينة "سالى" كانت قد أخبرتنا قبل ذلك بزمنٍ طويلٍ ما أنهت إليها تلك الفتاة الصبيّة الحميلة ... أخبرتها أنها كانت شعر باضمحلال قواها ، وبأنها لن تعيش طويلاً ، فكانت تنوى السّير ، حيثُ تموت على قبر الذى وهبها ذلك الغلام . . . »

واضطرب « مونك » أن يقدم إلى « أوليفر » نصيبه من ميراث أبيه ،
غير أن « أوليفر » أبغى له نصفه ليتمكن من العيش الحر السليم ،
ولا سيما أنه كان قد بدد نصيبه الخاص به ، فرحل إلى أمريكا محتفظاً باسم
« مونك » المستعار ، ولكنه عاد هناك إلى سيرته الشريرة ، فقضى نحبه
في أحد السجون .

وزفت الآنسة « وردة » إلى الفتى « هنرى » ابن السيِّدة الوقور التي
ربتها وكفلتها ، فعاشا في ظلال تلك السيِّدة الكريمة عيشة هنيئة سعيدة
واختارا السكنى في « لندن » وكان طبيب الأسرة يزورهم حيناً بعد حين ،
ويقضى معهم سهرات جميلة . وكان سرورهم يبلغ منتهاه عندما ينضم
إليهم السيّد « براون » ومعه « أوليفر » الذى تبنّاه في غضون جميعاً ساعاتٍ
ممتعة تخفى هناعتها ما فى فؤاد كل منهم من ذكريات أليمة . . .
ونشأ « أوليفر » نشأةً صالحةً ، وساعدته فضائله ومكارم أخلاقه
وطيب عنصره ، على أن يكون مثالَ الشباب العاملين النّاجحين . . .